مع غزّة

أشعر بالخجل من دارين وأطفال فلسطين

رامي أبو شهاب

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزة وكيف أثّر على انتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «العجز الذي يتنابنا يبدو مبرَّراً، ولكن التفاؤل يبقى حاضراً»، يقول الكاتب الاردني الفلسطيني لـ«العربي الجديد»

الدوحة ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

أعتقد أنّ الأمر يتجاوز كلمة الهاجس التي لا تُعبّر عمّا يكمن في النفس، على الرغم من أنّ التاريخ يفيض بالجرائم التي ارتكبها الإنسان. غير أن تشهد هذا يتجاوز قيمة الهاجس إلى ما يمكن أن ننعته بمحاولة أن تكون جزءاً من معنى ما عبّر عنه الكثير من المثقّفين والأدباء، بمعنى القضية التي تتجاوز مفهوم الالتزام، لأنّ الأخير لا يندرج فقط تحت المفهوم الأيديولوجي تجاه معنى ما، إنّما تجاه المعنى الإنساني الذي نشهد انتهاكه يومياً في ظلّ العجز.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟ لا يمكن إن أُنكر أنّ الأحداث الجارية في غزّة قد أصابت معنى الحياة بصورتها اليومية بالعطب، فالنفس البشرية تكاد تختنق بما يجري، وهذا حال الكثيرين في كلّ أنحاء العالم. لقد تكوّن زمن آخر موازٍ، زمن خرجنا فيه من ذواتنا لنعلق بزمن الضحايا، لكنّ فهمنا لمفهوم الضحية لا يمكن أن يكتمل لأنّنا خارج المكان، وما محاولاتي اليومية في الكتابة إلا للوصول إلى معنى الضحية، وربما بدت كتاباتي الأخيرة، ولا سيما مقالتي الأسبوعية، جزءاً من محاولة فتح كوّة في جدار من العتمة. ولعلّ هذا ما دفعني لإنجاز كتابي «الضحية» الذي استغرق مني أربع سنوات، غير أنّ معناه الآن بات جزءاً من محاولتي للبحث في تمثيل الضحية على المستوى الأدبي.

ولعلّ القراءة والكتابة لم تعُودا سوى هامش للحدث... للبحث عن أسئلة أو إيجاد الأجوبة، وبينهما أنت مضطرّ أن تمارس دورك اليومي والاعتيادي، ولكن العقل تجمّد، وبات الجسد جزءاً من دائرة تُسمّى الحياة التي نفقدها في مكان آخر.

■ إلى أي درجة تشعر أنّ العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

كما سبق أن أشرت في السؤال الأوّل، التغيير يكمن في الثقافة، وما يحيط بنا بكلّ تفاصيله الصغيرة إحالات ثقافية مهما حاولنا أن نضع لها عناوين أخرى. في مقولات ميشيل فوكو عن اللغة، ثمّة إشارة لامعة قوامها أنّ الوجود في النهاية ليس سوى تجسيد للغة، أو العكس، فكلّ ما يكمن في الوجود سينتهي إلى لغة، أو ضمن تشكّلات اللغة بمعناها التعبيري والتواصلي على حدّ سواء، بما في ذلك الرواية والقصّة والشعر والمسرح والسينما والرسم، ولكلّ ضحية حكاية ترغب في أن تقولها، ولكلّ ألم معنى، ولكلّ نشوُه خطاب ينقده، ويعريه، ولهذا فإنّ العجز الذي ينتابنا يبدو مبرّراً، ولكن التفاؤل حاضر، فالمواجهة أو الإبادة تستهدف نفي المعنى عن الذات، وإسكات الحقّ، ونفي الوجود، ولا بد من الكتابة ليبقى الصوت الذي يُزعج الآخرين.

■ لو قُيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أم مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

نتيجة الأحداث الأخيرة، أدركتُ أنّ العمل الإنساني يبدو أقرب إلى مفهومي، لكوني لا أملك البعد السياسي، ولا أملك تلك المهارات التي تجعلني قادراً على التغيير... في حين أنّ العمل الإنساني يتّصل بتخفيف المعاناة، واستذكر في هذا السياق كتاباً تناول حياة المفكّر الفلسطيني إدوارد سعيد، وردت إشارة فيه إلى شيء من هذا القبيل، وإلى رغبته ببذل المزيد من هذا الفعل لو عاد به الزمن؛ حيث أدرك أنّ معنى الإنسان يكمن في تقديم العون والمساعدة للآخرين. وفي هذه اللحظة الصعبة من تاريخ وجودنا، علينا أن نمارس إنسانيتنا لأنّنا في اختبار حقيقي.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

لا شيء سوى أن يتوقّف الموت، وأن تستعيد الشعوب حرّيتها وكرامتها، وألّا يتخلّى العالم عن إنسانيته التي أظهرت الحرب الأخيرة بأنّها هشّة جدّاً، ومختطفة من قبل النخب السلطوية التي تقدّم مصلحتها على مصلحة المعنى الإنساني، مما يعني أنّنا بحاجة إلى إعادة تقييم للكثير من مفاهيمنا وقيمنا. لا يمكن أن يستمرّ العالم بهذه الصورة، وإلّا فلا معنى للرحلة الطويلة التي قطعتها البشرية من القيم البدائية نحو نموذج حضاري، غير أنّ ممارسة الكيان الصهيوني، ودعم بعض قطاعات العالم له عربياً ودولياً لا تعني سوى أنّنا ما زلنا في قاع سلّم الكائنات. وهنا أستذكر كتاب المرحوم ممدوح عدوان حين كتب عن «حيونة الإنسان» بوصفه الكائن الوحيد الذي يقتل لأجل القتل، إذ تسكنه هواجس الطمع والاستحواذ، في حين أنّ سلوك الحيوان مسكون بتحصيل طعامه، وحاجته فقط.

■ شخصية إبداعية مقارَبة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

يمكن القول إدوارد سعيد الذي لم يمارس العمل الإبداعي صراحةً سوى ربما في كتابه «خارج المكان»، ولكنه كان مبدعاً في تشكيل الوعي- على المستوى الشخصي- في حين أنّ أثره على المستوى الثقافي حمل الدور الأكبر في نقد الهيمنة، ولهذا فإنّه من وجهة نظري أهمّ شخصية عربية وعالمية تمكّنت من تكريس نموذج فكري وخطابي لنقد الممارسة الاستعمارية، وتمظهراته الخطابية.

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

يبدو السؤال صادماً ومدهشاً، وربما أرى أنّني أستنكره، فأنا لا أملك كلمة أقولها لهم، عليّ أن نستمع إليهم فقط...

لعلّ القراءة والكتابة لم تعُودا سوى هامش للحدث

لا أملك كلمة أقولها للناس في غزة، لنستمع إليهم فقط

رامي ابو شهاب

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

أحيل الإجابة على سؤال آخر: أين الإنسان العربي؟ فالوقائع الأخيرة تكشف مدى هشاشتنا، على الرغم من كلّ ما يجري من محاولات للنضال، والاحتجاج، والمساندة، فإنّ الحدث يتجاوز هذا المعنى، ثمّة حاجة لشيء أكبر من ذلك.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيجوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

أشعر بالخجل من دارين، وأطفال فلسطين... فالخذلان لا يمكن أن يُغتفر. أقول لهم: أنتم حاضرون بقلوبنا دائماً، لن نتمكّن من تعويض فقدانكم لأحبّتكم وعائلاتكم ولكنّي مؤمن بأنّه بمحبتكم لبعضكم، مع مساندة الكثيرين ممّن يفكرون بكم، ستتمكّنون من تجاوز هذه المحنة، واستعادة طفولتكم.

بطاقة

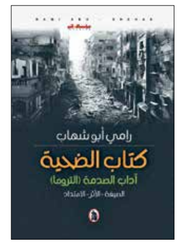

ناقد وأكاديمي وشاعر أردني فلسطيني، من مواليد 1974. من مؤلّفاته النقدية: «الرسيس والمحاتلة خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر» (2013)، و«في الممرّ الأخير: سردية الشتات الفلسطيني» (2017)، و«الأنوات المشوّهة» (2019)، و«خطاب الوعي الموسّلب في الرواية العربية» (2021)، و«كتاب الضحية» (2024). وله في الشعر «عدت يا ساد تي بعد موت قصير» (2007)، «أما أنا فلستـ(من)ـطين» (2019).

إطلالة

غربٌ يتلاعب بالمفاهيم

في «التطرّف»

تحاول الحكومات الغربية إعادة تعريف مفهوم التطرّف من خلال تقييم حالة الانحياز للفلسطينيّين خلال حرب الإبادة التي يشنّها الاحتلال عليهم

فوّاز حداد

لم ينشأ في العالم خلاف حول مصطلح «التطرّف»، ولا يعني أكثر من التشدّد والابتعاد عن الاعتدال. أمّا الخطر، ففي التمسّك بأيديولوجيات مغلقة، ومؤخّراً أصبح مرتبطاً بالدين، إلّا أنّه في الحقيقة قد يتعلّق بأية معتقدات.

يمكن إدانة التطرّف في حال استخدم العنف وسيلةً لتحقيق أهداف سياسية أو دينية أو اجتماعية، لكن ليس قبل تقدير الظروف الموضوعية، والعنف ذاته، هل كان مشروعاً أم لا؟ عموماً، لا يجوز إطلاق الاتهامات جزافاً، وإنما بطرائق موضوعية من جهات ذات نزاهة أخلاقية. هذا لم يمنع بعض الدول من التلاعب بالتطرّف والعنف، وجعلهما صالحين لاستخدام سلاحاً ضدّ جماعات تدافع عن حقوقها.

تحاول الحكومات إعادة تعريف التطرّف من خلال تقييم حالة الانحياز إلى الفلسطينيّين، على أساسها سيُحظر على جماعات وأفراد يمسّهم التعريف الجديد تلقّي الدعم الحكومي، ومنعهم من العمل مع مؤسّسات الدولة، باعتبارهم مشبوهين. الإجراءات المتوقّعة موجّهة ضدّ نشطاء «حملة التضامن مع فلسطين» الذين نظّموا في مختلف بلدان العالم سلسلة من المسيرات السلمية. بالتالي سيتمّ، من خلال تحديث مفهوم «التطرّف»، استغلاله أداة لمعاقبتهم.

ليست هذه المرّة الأولى التي تلجأ فيها الحكومات لاستثمار مفهوم التطرّف على نحو متطرّف، إذ لها سوابق معتبرة غير قانونية، ففي القرن الماضي، وُصفت النشاطة إيميلين بانكهيرست، داعية تحرير المرأة، بالتطرّف الاجتماعي لمطالبتها بحقّ المرأة في التصويت، كما اتُّهم المهاتما غاندي بالتطرّف السياسي لمطالبته باستقلال الهند. اعتُبرت طروحاتهم خارجة عن المنطق العام، ولا يمكن القبول بها، فعوقبوا بالنبذ والتجاهل والاضطهاد، ما أدّى إلى تجريمهم وسجنهم.

في الحرب على غزّة، تساند حكومات غربية «إسرائيل»، على الضدّ من مظاهرات عارمة تجري كرد فعل على دعمها للحرب في بلدانها. مع تمدّد الاحتجاجات إلى داخل مختلف المؤسّسات الإعلامية وغيرها واستمرارها في الشوارع، تعالت تصريحات لسياسيين تُندّد بها تحت زعم أنّ الغوغاء يهدّدون النظام الديمقراطي، مع أنّ الديمقراطية تتميّز بأنّها تسمح بالتعبير عن الرأي المخالف. بيد أنّ ما يدور في كواليس السياسة، وبدا بالتسرّب إلى العلن من خلال الصحافة، هو اعتبار المحتجّين السلميّين متطرّفين خطرين وحاقدين. أمّا المدافعون عن حرب لا يمكن وصفها إلّا بأنّها حرب إبادة، فوُصفوا بالاعتدال والاتزان والجديرين بالاحترام، وحذّروا من تمزيق الوحدة الوطنية للبلاد التي اختطفها دعاة برزجون للجهاد، لمجرّد أنّ المحتجّين يلاحقون السياسيّين ويتّهمونهم بأنّ أيديهم ملوّثة بدماء ضحايا غزّة المدنيّين.

ينطلق الدفاع عن مجازر غزّة، بعد محاولات التعتيم عليها، من خلال وسائل الإعلام، وذلك بالتقليل من معاناة الفلسطينيين وعدم انتقاد الروايات الإسرائيلية، بعد اشهر بات من المستحيل تجاهُل ما أصبح معروفاً تثبته الوقائع، فغزّة أصابها دمار شامل إلى حدّ غيّر معالمها، أو لم يعُد لها معالم، بعدما سُوّيت بالأرض، إضافة إلى مذابح جماعية أزهقت أرواح ما يزيد عن ثلاثين ألفاً من المدنيّين، حتى إنّ القصف الشديد لم يسمح بدفن الضحايا، وأفادت التقارير بأنّ الكلاب الجائعة تأكل الجثامين المتحلّلة.

بات من غير الممكن للحكومات ادعاء الجهل، طالما أنّ المسؤولين الإسرائيليّين أبلغوا العالم وبصوت عالٍ بما سيفعلونه بالضبط، وذلك بتجويع «الحيوانات البشرية»، وعدم تقييد جنودهم عن استعمال القوّة المطلقة، ومعاقبة المدنيّين باعتبارهم مسؤولين جماعياً عن السابع من أكتوبر، ومحو قطاع غزّة من على وجه الأرض.

يعيد التاريخ إلى الذاكرة، لئلا يغيب عنّا، أنه مثلما تمّ الاعتراف فيما بعد بكفاح بانكهيرست وانتصارها لحقوق المرأة، تمّ الاعتراف باستقلال الهند، وأصبح غاندي المتّهم بالتطرّف أيقونة اللاعنف في كفاحه ضدّ الاستعمار. وإذا كان لنا أن نتذكّر الذين سجنوهم، فلن يظفروا إلّا بالإدانة.

عموماً، لا يحقّ لحكومات تسيّرها المصالح الضيقة، إعادة تعريف التطرّف، ما يحتاج إلى بصيرة سياسية وشرعية أخلاقية، تفتقد إليها. إنّ المحاسبة الصحيحة تُجرّد من المصداقية حكومات برعت في قلب الحقائق، واعتمدت المعايير المزدوجة، والسعي وراء المنافع السياسية. هذه المحاسبة لا تُميّز بين الديمقراطيات والدكتاتوريات، إذ لا شأن لأنظمة الحكم بترجيح الكفّة إلى طرف. ولا يعني أن تكون هناك ديمقراطية مزدهرة أو شكلية، أو دكتاتورية منحطّة لها الحقّ في تبرير الجرائم ومنح القتلة البراءة تحت عنوان الدفاع عن النفس. إنّ الاتهام على علاقة بالشرّ المتخفّي وراء حذلقة السياسيّين، ولن تضلّ العدالة الإنسانية عن محاكمتهم كمجرمين فقط.

(روائي من سورية)

لا يحقّ لحكومات تسيّرها المصالح الضيقة إعادة تعريف التطرّف

طفلة فلسطينية في احد مخيّمات اللجوء، دير البلح، 10 آذار/ مارس 2024 (Getty)

ندوة

نحو كسْر الاتفاقيّات والتنسيق مع الاحتلال

حملات شعبية تُعزّز ثقافة مناهضة التطبيع

اتفاقيات التطبيع تجعل مصير الشعوب العربية بيد مجرمي حرب الإبادة، هذا ما ذهب إليه هشام البستاني ومحمد العبسي في ندوة جمعتهما في عمّان

بيروت ـ **العربي الجديد**

نظّمت «حملة مقاطعة إسرائيل» في لبنان، مساء السبت الماضي، ندوةً بعنوان «مقاومة التطبيع في الأردن في ظلّ حرب الإبادة في غزّة وتحدّيات المواجهة»؛ بُثّت عبر منصة «زووم»، وشارك فيها كلٌّ من المنسّق العام لـ«الحملة الوطنية الأردنية لإسقاط اتفاقية الغاز مع الكيان الصهيوني»، الكاتب والناشط هشام البستاني، والناشط محمد العبسي، وأدارتها مجدولين درويش.

انطلق البستاني في مداخلته من تبيان أنّ «وصول التطبيع إلى ملف الطاقة يُحوّله إلى حالة مُعقّدة، لأنّه يصبح مرتبطاً بأمور معيشية مباشرة في حياة المواطن العربي، ويضع مصيره بيد عدوّه، خاصة حين يتحكّم بهذه الاتفاقيات مجرمو حرب الإبادة في غزّة اليوم»، وتابع: «اتفاقية الغاز وما ترتّب عنها من تبعات سياسية واقتصادية، تعني تكبيلاً كاملاً لصانع القرار السياسي وجعله مُقيّداً وغير قادر على الكلام في الأزمات الكبرى، وهذا ما نشهده اليوم بشكل واضح».

وأضاف البستاني: «هناك قرار أميركي بمنع استثمار الدول العربية لثرواتها إن لم يرتبط ذلك بملفّ التطبيع. وإن كانت حملات المقاطعة الشعبية تتقدّم وتُحقّق نتائج ملموسة على الأرض، فذلك لأنّها تقع في حيّز مباشر وواضح ويُمكن تنفيذه. أمّا الاتفاقيات الكبرى فمواجهتها تتطلّب عُمقاً في الأداء، ولا تخلو من الصعوبة في التنفيذ لأنها تطوّق أولويات الحياة ومصادرها».

وأكّد صاحب «الكيانات الوظيفية» (2021) أنّ «حملات المقاطعة مُنخرطة مع القطاعات الشعبية في الاحتجاج المستمرّ، والتأثير على مسؤولية أصحاب القرار، ومستمرّة في محاولات إسناد غزّة بكلّ الوسائل، ومن أهمّها قطع التمويل المُتحصّل من خلال اتفاقيّة الغاز التي تذهب أموالها مباشرة لدعم الاقتصاد الصهيوني، وشراء الأسلحة التي تقتل الشعب الفلسطيني، وكذلك محاولة قطع الجسر البرّي بشكل فوري».

بدوره، أشار الناشط محمد العبسي إلى أنّ «تصدير الخضار إلى الكيان المحتلّ ليس جديداً، وقد سبق للحملات الشعبية أن أدانت ذلك، فكلّما ازداد التصدير ارتفعت أسعار المنتجات في السوق الأردنية، والأمر لا يتوقّف على الخضار، حيث سيتمّ تجديد اتفاقية شراء المياه من الكيان المحتلّ، التي أُبرمت عام 2021، في الشهر المقبل.

وبالتالي فقد وضعنا الملفات الحيوية تحت تصرّف الاحتلال ليستخدمها كيفما يشاء، وهذا امتياز أعطي مجّاناً حتى يبتزّنا من خلاله».

وفي المقابل، أكّد العبسي أنّه «على المستوى الشعبي، ما يزال الأردن مُلتزماً إلى أبعد حدّ بمسألة المقاطعة، حيث نُشهد إرساء ثقافة جديدة أكثر حساسيّة ولم تكُن بهذا التوسُّع سابقاً، ولم يعد الحديث عنها مُستهجناً كما كان في السابق»، كما أوضح أهمّية ربْط نضالات الشعوب العربية ببعضها؛ «إذ لا يُمكن التقدّم في المقاطعة على مستوى دولة واحدة، وإن كانت هذه الشعوب ترضخ لحكومات هي الأخرى مرتبطة باتفاقيات تطبيعية وأمنيّة».

لا يزال الأردن مُلتزما على المستوى الشعبي بمسألة المقاطعة

مظاهرة في عمّان دعما للحقّ الفلسطيني وتنديدا بالعدوان، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 2023 (Getty)

فعاليات

صورة وحكاية ـ الكرنتينا عنوان معرض فوتوغرافي يُفتتح بعد غد الخميس في «دار المُصوّر» ببيروت، ويتواصل حتى الحادي والعشرين من آذار/ مارس الجاري. المعرض من تنظيم «جمعية مهرجان الصورة - ذاكرة» و«اليونسكو»، ويضمّ **تحقيقات مصوّرة** نفّذها المشتركون في مشروع تدريبي يحمل الاسم نفسه.

بالتزامن مع شهر رمضان، يتواصل حتى الثالث عشر من نيسان/ ابريل المُقبل، المعرض الجماعي **بيتٌ لا تمرّ فيه جياعٌ اهلُه** في «إيوان القصّار - فندق السانت ريجس» بالدوحة، والذي يضمّ اعمالاً فنّية تدور حول علاقة الانسان بالارض، وحضور شجرة النخيل في الثقافة الإسلامية والعربية، ويستمدّ عنوانه من حديث نبوي. من المشاركين: **انفال الكندري** و**نديم كوفي** و**مريم التاجر**.

لمناسبة الـ47 عاماً على رحيل المطرب المصري عبد الحليم حافظ، تُقيم «دار الاوبرا» في القاهرة حفلاً استعادياً لأرث **العندليب الأسمر** في الثلاثين من الشهر الجاري. يقود الاوركسترا المايسترو محمد الموجي، بمشاركة المُغنّيين: **احمد عفّت** و**فرح الموجي** اللذين يقدّمان مجموعة من ابرز اغاني الفنّان.

عند التاسعة من مساء غدٍ الاربعاء، تستضيف منصّة «حوار التنوير»، في ندوة تُعقد عبر «زووم»، الباحث العراقي **سلام العبادي**، الذي يُحاضر حول **الهوية وصورة الآخر**، وتحاوره الباحثة فاطمة الثابت. تُناقش الندوة مفاهيم حول طبيعة الهوية ان كانت تواصلية ام صراعية، وعلاقتها بالعولمة، وحدود النفعية فيها.